مُغنّية الكورس

قصة لانطون تشيخوف

ترجمها عن الروسية أنطوان ابراهيم

كانت شابة جميلة ذات صوت ساحر .

وذات يوم كان عندها في المنزل الصغير نيكولاي بتروفتش كولباكوف .

وكان الجو حارا خانقا الى درجة لا تحتمل .

وما انتهى كولباكوف من تناول الغداء ، وشرب زجاجة من النبيذ الرخيص حتى صار عصبيا حاد المزاج.

ولقد ملا من طول ما انتظرا ان تخف حدة الحرارة قليلا لكي يخرجا للنزهة .

وعلى غير انتظار دق جرس الباب .

كان كولباكوف بملابسه الداخلية فحسب ، فنظر الى باشا متسائلا ، فقالت المغنية :

ـ لعله ساعي البريد ، او احدى الصديقات .

لم يكن كولباكوف خجلا من ساعي البريد أو من احدى الصديقات، ولكنه على كل حال أخذ ملابسه ، ودخل الى الحجرة المجاورة .

وجرت باشا لتفتح الباب ، فلم تجد أمامها لا ساعي البريد ، ولا احدى الصديقات ، بل شخصا اخر .. شابة حسناء غير معروفة لها.. امرأة انيقة الملابس .

كانت هذه الشابة المجهولة شاحبة الوجه ، مبهورة الانفاس ، كما لو كانت قد صعدت سلما عاليا .

وسألتها باشا :

ـ ماذا تريدين ؟

واجابت السيدة ببطء ، وهي تخطو الى الداخل ، وتدير نظراتها البطيئة في أرجاء الحجرة ، وجلست كمن لا تستطيع الوقوف من شدة الاعياء ، أو المرض ، ثم أخذت تحرك شفتيها الشاحبتين طويلا ، وان لم تستطع ان تقول شيئا ، وفي النهاية سألت وهي تصوب الى باشا عينين حانقتين :

ـ هل زوجي هنا ؟

وقالت لها باشا بصوت خافت :

ـ ومن زوجك ؟

واخذت تكرر ، وكأن يديها وقدميها قد تجمدت من شدة المفاجأة:

ـ من زوجك ؟ من زوجك ؟

ـ زوجي .. زوجي نيكولاي بتروفتش كولباكوف .

ـ لا .. لا ، أنا .. أنا لا أعرف من يكون زوجك !

ومرت فترة صمت ، وقد وضعت السيدة المجهولة منديلها على شفتيها الباهتتين عدة مرات لتقاوم السعال ، وحبست أنفاسها، بينما وقفت باشا أمامها بلا حراك وهي تنظر اليها بحنو واشفاق .

وسألتها السيدة مرة اخرى بصوت جاف ، وعلى شفتيها ابتسامة غريبة :

ـ أحقا ما تقولين .. انه ليس هنا ؟

ـ أنا لا اعرف عمن تسألين .

وزمجرت السيدة المجهولة بحقد واشمئزاز :

ـ أنت خائنة ، دنيئة ، خبيثة .. أجل .. انت خائنة .

انني في غاية الارتياح ، لانني استطعت أخيرا ان أقول لك هذا !

وشعرت باشا أنها بخبثها هذا تثير أعصاب هذه السيدة ذات الرداء الاسود ، والعينين الحانقتين ، والانامل الرقيقة البيضاء . وبدأت تخجل من خديها الموردين الممتلئين، وخصلة الشعر على جبهتها.. تلك الخصلة المتهدلة دائما على الجبهة ، وبدا لها أنها لو كانت نحيفة، شاحبة الوجه ، ولو فقدت شعرها المتهدل على جبهتها ، خير لها من ان تقف مروعة خجلة امام هذه السيدة الغامضة التي تقتحم عليها بيتها.

واصلت السيدة سؤالها : ـ أين زوجي ؟

سواء أكان هنا أم لم يكن ، فان واجبي ان أوضح لك ان نيكولاي بتروفتش مختلس ، وان اختلاسه قد اكتشف ، وان البحث جار للقبض عليه !! وكل هذا بفعلك أنت !

وأخذت السيدة تروح وتجيء في الحجرة بخطوات عصبية، وكانت باشا تنظر اليها ، ولكنها من شدة الوجل لا تكاد تفهم شيئا .

وقالت السيدة : ـ انهم سيقبضون عليه اليوم !

وانخرطت في بكاء طويل ، ومن خلال البكاء كانت تعبر عن استيائها وضجرها بهذه الكلمات :

ـ أنا أعرف من الذي دفعه الى هذا .. أنت ايتها الخائنة الخبيثة! استمعي أيتها المرأة الساقطة ! انني عاجزة ، وأنت أقوى مني ، ولكن الله يرى كل شيء !

سيعاقبك على كل دمعة انحدرت من عيني ، وعلى كل ليلة سهرتها ! غدا سيحين الوقت الذي تذكرينني فيه !

واستمرت السيدة تروح وتجيء في الحجرة ، وهي تفرك يديها. اما باشا فكانت تنظر اليها بحيرة ولا تفهم ، غير انها كانت تتوقع منها شيئا مخيفا . وفجأة أجهشت بالبكاء وهي تقول :

ـ ولكنني لا أعرف شيئا مما تقولين !

وصاحت السيدة .. صاحت وهي تنظر اليها بحقد :

ـ لا تتجاهلي ! فكل شيء اصبح معروفا لدي ! انني أعرف ذلك منذ أمد بعيد ! أعرف انه كان يزورك في الشهر الاخير كل يوم !

ـ نعم ، هو كذلك ، انه كثيرا ما ينزل في ضيافتي ، وانا لا اكره ابدا ان يزورني أي انسان .

ـ أنا أقول لك : ان اختلاسه قد اكتشف ! لقد اختلس نقودا ليست له ! وكل ذلك من اجل امثالك .. من أجلك اجترأ على الجريمة !

وعادت السيدة تقول في حزم :

ـ انك لا تعيشين الا من أجل هذا .. من أجل التحريض على ارتكاب الجرائم ، ومن المستحيل ان تفكري ، فليس لديك أي شعور انساني مطلقا ! ان له زوجة وأطفالا .. واذا حوكم وسجن فانني أنا وأطفالي سنموت من الجوع . فكري في هذا ! ان في مقدورك ان تنقذيه وتنقذينا معه من الفاقة والعار ، اذا انت أعدت الي اليوم تسعمائة روبل فانهم سيتركونه في أمان .. تسعمائة روبل فحسب !

وسألتها باشا بصوت خافت :

ـ عن أي تسعمائة روبل تتحدثين ؟ أنا .. أنا لا أعرف .. انا لم آخذ منه شيئا ..

ـ أنا لا أطلب منك تسعمائة روبل .. فليس لديك نقود ، ولا ينبغي لي أن أسألك نقودا ، أنا لا أسألك شيئا من هذا .. فالرجال لا يهبونك نقودا ، ولكنهم في العادة يهبونك المجوهرات الثمينة ، أعيدي لي هـذه المجوهرات التي أهداها اليك زوجي فحسب .

وصاحت باشا :

ـ ولكنه لم يهدني آي شيء !

وأخيرا بدأت السيدة تتفاهم معها :

ـ واين اذن تلك النقود التي اختلسها ؟ انه اختلس نقودي ونقود الاخرين . استمعي الي .. أرجوك ! واعذريـني اذا كنت قد كلمتـك بخشونة وأنا في ثورة غضبي . من حقك أن تكرهيني ، أنا أعرف ذلك ، ولكن ما دمت قادرة على العفو فاني أتوسل اليك .. أعطيني المجوهرات !

وقالت باشا وهي تهز كتفيها :

ـ أنا أسلم لك في هذا بكل سرور ، ولكني أقسم لك أنه لم يعطني شيئا .. صدقيني .

ـ حقيقة أنه أهداني شيئين ، أردهما اليك اذا شئت .. تفضلي.

وسحبت درجا من أدراج منضدة الزينة ، وتناولت منه أسـورة ذهبية رخيصة ، وخاتما رقيقا محلى بالياقوت ، وقالت :

ـ تفضلي !

واحمر وجه السيدة من الغيـظ، وأخـذت ترتجف لانها أهانتها: وقالت :

ـ ماذا تعطينني ؟ أنا لم أطلب منك احسانا ، ولكن هذه المجوهرات لا تخصك ، بل استوليت عليها من زوجي .. هذا الرجل الضعيف التعس .. لقد رأيتك يوم الخميس مع زوجي في الميناء ، وهو يهدي اليك مشابك للصدر ، وأساور ثمينة ، ثم أنت الان تخدعينني ؟ أنا أسألك للمرة الاخيرة: أتعطينني المجوهرات أم لا ؟

وقالت باشا :

ـ يا لك من سيدة عجيبة !

ثم بدأت تقول في عصبية وغضب :

ـ أؤكد لك أنني لم آخذ من زوجك سوى هذه الاسورة وهـذا الخاتم ، ان كل ما كان يخصني به هو الشطائر الحلوة فقط.

وضحكت السيدة المجهولة في سخرية وهي تقول :

ـ الشطائر الحلوة !.. لا شيء في بيت أطفاله ، أما هنا فشطائـر حلوة .. أترفضين باصرار أن تعيدي الي المجوهرات ؟

ولم تجب باشا ، فجلست السيدة تفكر في شيء ما ، وهي تقـول في نفسها :

ـ ماذا أصنع الان ؟ اذا لم أحصل على التسعمائة روبل فانـه سيهلك ، وسنهلك أنا وأطفالي ، ماذا أصنع ؟ أأقتلها أم اجثو على ركبتي أمامها ؟

وضغطت المنديل على وجهها ، وبدأت تنشج ، وهي تقول :

ـ أرجوك ! لقد حطمت زوجي .. أهلكته ، فأنقذيه . أنت لا تشفقين عليه ، بل على الاطفال .. الاطفال .. ما ذنب هؤلاء الاطفال ؟

وتصورت باشا الاطفال الصغار وهم يقضون في الشارع باكيـن من شدة الجوع ، فأخذت تبكي هي الاخرى وهي تقول :

ـ ماذا أستطيع أن أفعل؟ أنت تقولين انني حطمت نيكولاي بتروفتش، ولكنني أؤكد لك أنني لم أحرز منه شيئا ، لانني أقاطع كل ما في بيئتكم، فنحن في الفرقة نعيش كالفقراء على الخبز والماء فحسب .

ـ أنا أطلب المجوهرات ! أعطيني المجوهرات ! انني أبكي ..واتوسل اليك ، واذا شئت فانني أجثو على ركبتي ! أرجوك !

وصاحت باشا في فزع ، وهي تلوح لها بكفيها آلا تفعل، وقد شعرت بشيء من الزهو ، لان هذه السيدة الشاحبة الجميلة يمكن فعلا أن تجثو على ركبتيها ، ثم قالت :

ـ حسنا ، سأعطيك كل المجوهرات ! تفضلي !

انها لم تهد الي من نيكولاي بتروفتش ، وانما أهديت الي من اخرين .

وفتحت باشا صوان الملابس العلوي ، وتناولت منه مشبكا مرصعا بالماس ، وعقدا من المرجان ، وعددا من الخواتم والاساور ، وقـدمتها للسيدة ، وقالت وقد جثت على ركبتيها متألمة متهددة :

ـ خذي اذا شئت ، وان كنت لم آخذ من زوجك شيئا قط، خذي .. اغتني ! وما دمت زوجته القانونية فاحتفظي به ، فأنا ما دعـوته الي ، وانما هو الذي جاء لي من تلقاء نفسه .

ونظرت السيدة من خلال دموعها الى المجوهرات التي جاءت بها وهي تقول :

ـ ليس هذا كل شيء .. هذه المجوهرات تقدر بأقل من خمسمائة روبـل

وتناولت باشا كذلك ساعة ذهبية ، وعلبة سجائر ، وأزرارا لكم القميص ، وهي تقول :

ـ لم يبق عندي شيء أكثر من هذا .. فتشيني اذا شئت .

وتنهدت الزائرة ، وبيدين مرتجفتين لفت المجوهرات في منديلهـا، وخرجت !

وفتح باب الحجرة المجاورة ، واقبل كولباكوف ، وقد علاه الشحوب، وهز رأسه في عصبية ، كأنما بلع شيئا لاذع المرارة ، والتمعت في عينيه الـدموع .

وارتمت باشا عليه وهي تقول :

ـ آية مجوهرات جئتني بها ؟ ومتى ؟ هل تسمح لي أن أسألك ؟

وقال كولباكوف وهو يهز رأسه :

ـ مجوهرات .. مجوهرات ـ هذا شيء تافه ! يا الهي . لقد كانت هنا .. تبكي .. وتتضرع !

وصرخت باشا :

ـ انني أسألك : آية مجوهرات جئتني بها ؟

ـ يا الهي ! انها ـ هي المتكبرة ، النظيفة ـ وصلت الى حد أنهـا أرادت ان تركع على ركبتيها أمام.. أمامك ! وأنا الذي دفعتها الى هذا !

وأمسك رأسه بيديه ، وتأوه ، وهو يقول :

ـ لا ، لن أغفر لنفسي هذا أبدا ! لن أغفر ! ابتعدي عني ! اذهبي بعيـدا !

وصاح باشمئزاز وكراهية ، وهو يبعد باشا بيديه المرتجفتين :

ـ لقد أرادت أن تجثو على ركبتيها ، و .. أمام من ؟ أمامك أنت ! يا الهي !

وارتدى ثيابه على عجل ، وانطلق الى الخارج .

وارتمت باشا وأخذت تبكي بصوت عال .

لقد ندمت على المجوهرات التي أسلمتها في لحظة اندفاع، وشعرت بالاهانة .

وتذكرت كيف ضربها احد الباعة ذات يوم وبدون سبب عـلى الاطلاق ، وكيف بكت يومها بصوت عال ، كما تبكي الان !

القاهرة

ترجمة : **رضوان ابراهيم**

مكتبـة روكسي

أطلبوا منها الاداب كل اول شهر

مع منشورات دار الاداب

اول طريـق الشـام

صاحبها : حسن شعيب